

ماكس نوردو

(١) تمهيد

الاستقلال في الرأي صفة نادرة في الناس واندر منها ان تقع على آثارها في التراجم التي يترجم بها عن حياة العظماء . ولطالما فنت شخصيات المترجمين في شخصيات الذين يترجمون عنهم حتى قلنا للنوردو ما كولي كبير تقاد الانجليز في انقرن الماضي ان الاغراق في مدح الشاهير مرض اجتماعي لم يخلص منه إلا قليل من الكاتين كثر ما ساقتم بهم فكرة الاستقلال في الرأي الى الاغراق في النقد فمصرفوا فيه حتى اوقفهم حذرهم من المحابة في معرفة انبعد عن الاقراط في القول والانصاف في الحكم

على ان ادعاء العصمة كشأن الاداء في كل شيء رذيلة كبرى وهي اشنع ما يبلغ اليه الانسان من مدارج الاسفاف والسقوط

نبه على ذلك لاننا سنقدم على الكلام في ماكس نوردو وهو ذو شخصية بارزة في عصرنا الحاضر اختلف الناس فيها اختلافهم في كل شيء فن قائل بانة فيلسوف ومن زاعم انه مصلح اجتماعي ومن مقال فيه يقول انه نبي الجيل الحاضر ومن مسرف في النقد قائل انه ليس اكثر من متشائم Pessimist نظر في العالم من ناحية السوداء فطسى عليه سيل الحيرة والفوضى

ان كل كلمة من هذه الكلمات تدل على ان الرجل قد انصف التاريخ . وان كان كل ما في العالم أمر مما فيه صح مع ذلك ما قاله العلامة سيشوارت ميل :

« لا تطمع أن تنال من الدنيا أكثر مما في استطاعة الدنيا ان تعطيك »

والدنيا قد اعطت ماكس نوردو أكثر مما في استطاعتها ان تعطيه . كالت له المدح وزفت اليه الثناء كما انها لم تبخل عليه بالنقد مكيلاً في بطون الاوراق الخالدة وبما لا ريبه فيه ان الحكم على الآثار العقلية بنسبة زمان واحد خطأ نفساني فاشية آفاره بين الناس . لذلك يصح ان يترك الحكم على الرجل للتاريخ . وللتاريخ البعيد ايضاً . لان الحكم على منتجات الفكر كما قامت في عقلية واضعها امر بعيد عن النصفه والاقساط ذلك لأن الواجب ان يتكون الحكم حياً تخلف اعمال الرجال من الآثار لمستقبل الاجيال

كم ذاع من فكره ولم ينتشر من مذهب لو حكمت عليه كما كان في عقل صاحبه
لحكمت بانه ضار لا نافع في حين انك لو قومته بالقياس الى ما انتج من حركة
في علم التفكير او ما ساق اليه من مختلف الجهد في سبيل الوصول الى الحقيقة وادرت
ان توازن بين ذلك وبين ما فيه من خطأ لاربت ناحية النفع على ناحية الضرر .
اذن فالواجب ان يترك الحكم المطلق للتاريخ اما الحكم النسبي فذلك ما في استطاعتنا
ان ندلي فيه بقوله او نقضي فيه برأي

نسوق الكلام في ما كس نوردو كما هو في هذا العصر وبسببه ما خلف من
اثر في عقول ابناؤه غير عاقلين ماذا يكون من امره في المستقبل . وغاية ما في استطاعتنا
ان نقول في هذا الشأن ان حكم التاريخ على نوردو سيكون حكم التطرف والمبالاة
بسببه ما حكم هو على الدنيا وعلى الطلبة الاجتماعية التي قامت من حوله . فاما
الى البقاء الخالد واما الى انسيان الدائم . وكلا الامرين عظيم . لان البقاء بالاثر
الفكري ان كان في الواقع خلوداً فان في طي الشخصيات في نواحي النسيان نوعاً
من الخلود . لانه لا ينسى الا من شعر الناس بوجوده . فلا نسيان الا بعد وجود
وكفى بالمرء نفراً ان ينه مشاعر الناس بوجوده الحقيقي ليكون خالداً



كان ما كس نوردو حراً الرأى بعيداً عن التقاليد . لذلك كان بلا دين . رجل
رضي من الدنيا بان يعيش فيها ناقداً لا أقل من هذا ولا أكثر . واول ما ادى به
اليه نقده ان يكون بلا دين . فكذلك عاش وعلى هذا طواه التراب
غير انه نظر في العالم نظرة الناقد فلم ياتلف مع عقله ان يكون هذا العالم بما
فيه من النظام بلا صانع وانه نتيجة الصدفة المياء فاعتقد بان للكون صانماً
حكيماً مدبراً يبدو فيه حكمته ولكنه استصغر على الصانع العظيم امر الاعتناء بما
سماه الدابة المفكرة التي ندهوها الانسان فقال بان الاديان لم تخرج الا من عقول
واضعها تحتاج اليها الطبيعة الحيوانية في الانسان اكثر مما تحتاج اليها الطبيعة
الفاصلة الراحدة . يحتاج اليها من تقضي الضرورة الى ارهابه بمقاب النار والذباب
المقيم او بترغيبه بالنسيم الدائم فهو بذلك الهى لا غير Deist لا الهى متدين
Theist . والاول يعبد الاديان وانما يمتد بالله والثاني يستمد بالله وبالاتيان ايضاً
كما ان نوردو قد استصغر الانسان في جانب الله كذلك استصغر العقل الانساني

إزاء الكون فقضى بان العقل محدود لا يبلغ مداه إلا دائرة صغيرة من النظر لا يصح ان يحكم من ناحيتها على العالم مثله كمثل اسمي الذين اخذوا يصفون فيلاً من امك بديلر قال انه كالجلل ومن لس بطنة قال انه كالكرة ومن وقع على رجله قال انه كالشجرة فالكل صادق على درجة محدودة ولكنه مخطيء على درجة غير محدودة . فاذا قال الفلكيون ان العالم عبارة عن قانون الجاذبية واذا قال الكيمييون ان العالم هو الجوهر الفرد واذا قال الميكانيكيون ان الكون عبارة عما فيه من قوانين القوة والطاقة الي غير ذلك فليسوا مخطئين بل هم مصيبون ولكن بنسبة ما والى حد محدود . في حين انهم مخطئون لانهم حكموا حكماً عاماً على شيء نظروا فيه من جهة خاصة . فاذا سألت هؤلاء مثلاً لماذا يكون للجاذبية يد في نظام العالم ولماذا خضت المادة بسن الجذب والدفع او لماذا تتكون المادة من جواهر فردة ما وجد هؤلاء من جواب أروح عليهم واخرج بهم من ضيق مايقسمهم فيه العقل من القول بانها كذلك سبقت ارادة الله



ان كتاب نوردو الذي اكتبه شهرة الشاؤم بحق هو كتاب الفساد الاخلاقي Degneration ولكن هل كان نوردو متشاكماً حقيقة ؟ ذلك ما سوف نظره فيها سنكتب فيه بعد . غير ان نزعته في ذلك الكتاب غريبة خارجة عن تيار الافكار التي سادت في القرن التاسع عشر . فبينما كان اكثر المفكرين يقولون بان الانسان يرتقي ويتقدم مستمد من تقدم العلوم الطبيعية وتعود الانسان على قوى الطبيعة دليلاً على ذلك اذ بنوردو يقول بان الانسانية تنحط . واين ؟ في اوربا . مهبط وحي العلم وعنوان المدنية الحديثة . اما البحث في الاسباب التي ساقته الى هذه النزعة فسيكون ختام هذا التمديد ومن ثم نستطرد الى البحث في نوردو بحثاً تحليلياً لنعرف هل كان متشاكماً او متفائلاً

لقد اشرف نوردو من شرفة عقله الكبير وقوة ابتكاره على ابناء جيله ومقدمون على عصر انقلاب اجتماعي لم يمهد له التاريخ مثيلاً . اشرف على نهر الحياة الاوربية الفائض فلم يجره التيار بل ظل واقفاً على الشاطئ . يتأمل من تدافع اوجه تلك الحياة وتجانسها من تجانسها وتناقضها فاستنتج ان هناك انحطاطاً وتدهوراً وضوؤة في الملكات مثله في ذلك كمثل «روسو» في اول رسالة نال عليها

جائزة جامعة دييجون العلمية إذ اشرف على ابناء جيلهم مقدمون على عصر الثورة
فاتخذهم عنواناً على الحياة البشرية فقصى بان الانسان سائرة في طريق التمهق
ان تصور الانقلاب في الجماعات اشبه شيء بسبر الحمى في الناس تلقىهم في
المرض وتندرج بهم في شياً فشيئاً حتى اذا ادركهم عصر الانقلاب اخذهم المذنبين
فمعدوا الى التحطيم والهدم فاذا انقضت غيامة الانقلاب رجعوا الى البناء والتشييد
ناظرين في انقراض ما تهدم ليحتلصوا منه النافع وينذوا الضار

اشرف نوردو على جماعات عصرهم وهم في بدء الانقلاب وكاد يدركهم هذين
الحمى وحكم فيهم نوردو حكمة وهم في حالهم تلك شموخين بالافلات من مساويء
الانقلاب وانى لهم ان يتفقدوا من اقطار الطيبة وهم ابناءها الثائرون فحيل انهم
ان العقل منحيم فاكبوا على العلم الانساني يستزنون وحية فلم يخرجوا من ذلك
الأبماء صرف وفوضى لا نهاية لها . اوقفهم عليهم في اخللاف وأنهى بهم الى
انتشائم . ولم يصلوا الى هذا الحد الا ليحكم عليهم نوردو بانهم آخذون بسباب
الناس صاربون في اصول الانحلال الاخلاقي

ولا مشاحة فيه ان كتاب نوردو خير كتاب يخرج من عقل مبتكر في عصر
انقلاب تشرف عليه الجماعات بعد ان بعث الباحثون انفسهم في البحث عند مخرج
من فوضى النزعات القائمة فيه . اما الصورة الحقيقية لعصر نوردو فلا يظهر
عليها مثل تأملك في الحالات الاجتماعية التي قامت من حوله وكل ما فيها يدل على
ان جماعات المدنية الحديثة مشرفة على انقلاب وان هذان الحمى كاد يدركها

يقوم الآن عند الناس شعور طبيعي بان درجة محنومة من درجات النشوء
الاجتماعي واقع في المدنية الحديثة قد ان اختتمها وان ابناء القرن العشرين
يستقبلون عهداً جديداً غير انه من ابعث الاشياء القائمة في هذا العصر على العجب
والتأمل انك لن تجد من خطرة فكر يفيض بها علينا اولئك الذين يتكلمون باسم
العلم ورسوخ القدم فيه يفصحون بها عن المتجه التي تمتشى فيه حالات التقدم
المتقبلة . فانك ايها وليت وجهك باحثاً في اية جهة من جهات المعرفة الانسانية
التي تتجشم مؤونة التأمل في المسائل الاجتماعية والبحث فيها لا تقع الا على مظاهر
جلية من التغير والتلق بارزة في جبين هذا العصر . وعلى الرغم من تلك الخطوات
الحديثة التي خطاها العلم خلال القرن الماضي وهذين العقدين اللذين فرطاً من القرن

العشرين فانك لن تجد محيصاً عن الاعتراف بأنه لم يقم بعد علم نستطيع بحق ان ندعوه « علم الجماعات الانسانية ». اذ اي أثر للعلم اليقيني الحق في موضوعات استحكمت فيها فرضي المباحث المتأثرة تحت كثير من مختلف العناوين والتعاريف؟ بيد ان الاستنتاجات العامة التي قصد بها وضع فكرة خاصة في وحدة تخضع للسنن التي تمضي مؤثرة في المظاهر الاجتماعية المختلفة القائمة في عصرنا هذا لم تكن نتاجاً لتفكير مدارس عليية حقة عينت بدراس المشكلات الاجتماعية وصرفت عنها نحو معرفة اصل الاجتماع الانساني وتمقب خطى تطوره ونشوتها . ذلك ما تقوم عندنا عليه اوجه الترجيح مها تلكاً في الاعتراف بأنه واقع

ان تلك المنتجات العامة لم يتقدم وجه النظر فيها الآن من طريق تلك المدرسة الاجتماعية الثورية الهديمية التي كان « كارل ماركس » زعيمها الاول وعلمها الفرد

اما اذا اردنا ان نحكم على العلم بمقتضى اقوال متطسيه فاننا نجده رغم ان اكبر مفاخره في القرن التاسع عشر قد انحصرت في الكشف عن خطى النشوء والتطور الحيوي حتى انتهى الى الاجتماع الانساني قد وقف واجماً ازاء المسائل التي تمثلها الجماعات في حالتها الحاضرة . والظاهر انه ليس لدى العلم من شيء يزودنا به عن حالات التطور المنتظرة التي سوف تمضي فيها الجماعات في المستقبل

لقد وقع في القرن الماضي وفي شباب نورودو وقتوته اكبر مثال عما انجم فيه العلم ان ركن اليه لاستدراجه وحيه في تنوير الازهان للفحص عن تلك المشكلات التي تقابل اراءها الجماعات . فالفلسفة التركيبية Synthetic philosophy التي كتبها « هربرت سبنسر » من الاعمال التي يتوج بها جبين النصف الاخير من القرن الماضي . ولا خلاف في ان هذه الفلسفة من معجزات العقل البشري لا من جهة ما قصدت اليه من توحيد فروع المعرفة الانسانية وحده بل من جهة ما اباتت عنه من خضوع الجماعات لقواعد النشوء الحديثة التي وضعت في النشوء والارتقاء عامة تلك السألة التي نعتقد بحق ان الوقوف على مفضلاتها ومقوماتها أمر فيه من الخطر والشأن ما يجعل بقية منتجات العلم مقيسة بها اشياء اولية في نظر الاجتماعيين والمصلحين والفلاسفة وعلى الاخص في نظر نورودو

على الرغم من هذا فان كل ما استطاع « سبنسر » ان يلقى من نور الاختبار

على تلك المعضلات الاجتماعية التي كانت قدمة في عهده والتي تولدت منها الحالات القائمة في عصرنا وهي حالات لم تبلغ من النضج في عصر من العصور مبلغها في العهد الحاضر لم يكن الا شعاعاً ضئيلاً جد مسؤولته حتى انك لتجد ان مباحثه وثمار افكاره وتاملاته من اية ناحية قلب الاجتماعيين والمصلحون اوجه الرأي فيها لم تسق الا الى ازدياد الخرق اذ انتجت بينك المدرستين المتنازعتين مدرسة القائلين بالفردية، تسلط الفرد واستقلاله، وعدم كفايته ومراهبه ومدرسة القائلين بالاشتراكية، تسود الجمعية المشتركة على الفرد وخضوعه لها

ومنذ قام هربرت سبنسر في إنجلترا ينظر الى النزعات الاشتراكية التي قامت في عصره نظرة البص لا بل نظرة الجزع والاستكراه ومن انقسم الباحثون الذين تخرجوا في مذهبه الى ممارسين ومؤيدين الى قيام الاستاذ «شافل» في ألمانيا ناظراً الى المستقبل نظرة من يعتقد انه لا محالة مفض بالناس الى المبادئ الاشتراكية المتبقاة حتى ظهور «ماكس نورددو» لينشر اثناء جيله بانهم منحنطون متدهورون لا تقع في طوال ذلك العصر الا على ضرور من تباين الآراء والوان من رباح الافكار المضطربة

اما وقوف العلم ازاء ذلك وقفة الواجم الذي تملكته قوى السلب من كل ناحية فان الاستاذ «هكسلي» الشرح المشهور والباحث الاجتماعي الكبير ليمثل افضل تمثيل اذ اكب في بعض كتاباته على تسفيه آراء المدرستين القائلة بالفردية والقائلة بالاشتراكية معتبراً ان كلا البدأين من المضادات لبديهة العقل بل من التسميات عملاً والمتناقضات عقلاً

ولن نستطيع ان نعتبر كل هذه الجهود كاوليات رمت نحو استيضاح اية فكرة مقبولة فيما تنحصر فيه واجبات الانسان ازاء ما يحيط بالمدينة من ظروف وما يحف بها من حالات. فان الاستاذ «هكسلي» رغم حملته المنكرة على هاتين الفكرتين لم يزدد يقينه في المستقبل الا غموضاً وابهاماً حتى انه يسوق بقرائه زاعمهادينهم متمسداً بتورم مبادئه ياتعمون بها الى مزالق لا يجدون فيها من يقين يستمدون وحيه او امل خاص برتبوتة

ذلك في حين ان اقل الناظرين في حالات الاجتماع حتىك ليمتقدون بان الليالي حبال تكاد تتمخض عن عظيم الطرادات وخطير الانقلابات الاجتماعية. حتى

اولئك الذين يزجون بانفسهم في مدارج النقد التهديمي يشعرون باقتراب ذلك وحلون اوانو . فان الاستاذ « هكسلي » نفسه رغم نتائج انسانية التي دعي اليها زماناً يظهر عظمها أشد النهيست تصرفاً في استكثار الحالات القائمة في الاجتماع حيث قال في احدي خطبه المشهورة :

« ان أكل صورة من صور المدييات الحديثة لتصور في حالة من حالات النوع الانساني لا تتضمن زعة خيالية ذات وزنًا ولا تملك شيئاً من روح الاستقرار والثبات . ولن نجد لدى من الاعتبارات ما يحيطي اتمكاً في القول بأنه اذا لم يكن لدينا من اسل في تهذيب حالات اكبر مجموع من السلالة البشرية واذا صح ان تقدم العلم والمعرفة وازدياد سلطة البشر على الطبيعة الذي يستوجب تزايد المعلومات واستجماع الثروات التي يستغلها الانسان من تسوده على قوى الكون لا تحدث فرقاً في مطالب الانسان وحجائه العظيم مع ما هو مقترن بذلك من الانتمحلال التكويني والنقوطة الادبي فاني لا رجب بعذب عظيم يكسح من صفحة العالم ذلك الاسر كة »

ان مجموع تلك الافكار الكبيرة التي يبعث بها في عقول الناس هذا النوع من الشعور لمي التي تقيم جماعات المدنية الحديثة وتقعدها بالغة من التأثير فيها ابعده مبلغ . وما من شيء اثبت اليوم في عقائد الاجتماعيين والمصلحين من ان هذه الافكار سوف تؤثر ارها المحتوم

ولقد نظر المستر « هنري جورج » المؤلف الاميركي الكبير الى الاجتماع من وجهة القوميات الصرفة متشائلاً الى أي حد سوف تبلغ خطوات كل شعب من الشعوب الضاربة في اصول الارتقاء الذي ؟ لان « تعليم اناس تفرض عليهم معيشة الشقاء والفقير لا يزيدم الا كنفوداً وكفراناً » — كما ان اتخاذ ابعده حالة من حالات « عدم المساواة الاجتماعية اساساً لارتكاز النظمات السياسية التي يفرض من الوجهة النظرية ان الناس متساوون امامها لأمره فيع من البعد عن العقل بمقدار ما نحاول ابتداء هرم يرتكز فوق الارض على قننه لا على قاعدته »

تلك هي الحالات التي احاطت بالجماعات التي اصدر فيها نوردو حكمه . جماعات هاذية محومة يكسحها عصر انقلاب اخذ باسباب حياتها . اذن فهي جماعات خيرة ما يخرج فيها كتاب الانحلال الاخلاقي

اسماعيل مظهر